العقل المسكون...

عنوان الكتاب: العقل المسكون
اسم المؤلف: بيلسان إيّاد أحمد
القياس: 15 × 21
الطبعة الأولى: 2021

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الاخراج: عائدة سلامة ـ الشام
موافقة اتحاد كتاب العرب: 640
تاريخ: 13 / 10 / 2021

لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره بأية وسيلة من الوسائل إلا بإذن خاص من المؤلف

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmlted in any from or by any means including recording or any information storage and retrieval system without permission in writing from the composite .

العقل المسكون...

خواطر ونصوص

بيلسان إيّاد أحمد

دمشق سورية 2020

والآن ولابدّ من التّخلّص الذّاتي لما يحدث...

سأترك ذاتي تقتل نفسها في التّفكير...

كنت أظنُّ أنَّ لخيالي الذي دوّنته على تلك الأوراق السّخيفة سيجدّد نفسه تلقائياً...

مستعيداً منها طاقته وحبّه وحتّى شغفه...

لكن هذه الأوراق تبوح بخيبة الأمل والانكسار وعودة المنعطفات النّفسيّة من جديد...

حاولت الآن حرقها لكنّها تكاثرت في خلايا جسدي وبدأت بالتهامها

شاءت الرّوح بالصّراخ وأبت الأذان أن تسمع تلك السّيمفونيّة المتحطّمة...

سأخلد الآن في ديار الماضي كي لا أعيش حاضري البائس وسأغوص في أعماق الذّكريات الجميلة...

حتّى أستيقظ من حلمي وأعود إلى صباح البؤس..!

- 1 -

منزلٌ يتيمٌ...

لم ينقضِ الأمر في غربة أهله، بل كانت المدّة طويلةٌ جدّاً...

الغربة موطنٌ آخر، قاسية المعنى وصاحبها المصدر، الغربة فراقٌ حزينٌ مبعثرٌ يترك ألماً على أهل الغربة من أبٍ وأمٍّ وطفلٍ وجنين، والقليل من أشلاء الذّكريات على المنزل الأوّل...

.....

قرّرت تلك العائلة الرّحيل من المنزل والغربة، والطّفل براء يحنُّ إلى غرفته وأصدقائه في المدرسة، والجنين يركل بطن أمّه حزناً على سريره المجهّز له، والأب يحزم أمتعته وهو يقتلع قلبه في هذا المنزل، وأما الأمّ بعادتها ترتّب المنزل وتنظّفه، وتسقي أزهارها العطشى بالماء والدّموع...

الأب: كلُّ شيءٍ جاهز، هيا بنا...

وهنا البيت بدأ يتحطّم، الأزهار تذبل، وكل شيءٍ تيتّم...

انطلقوا إلى المطار، وهنا بدأت أوّلُ دقيقةِ غربةْ، المنزل يحاول الصّمود ولكنّه ينهار، لقد اعتاد على قهوة الصّباح العائليّة، والأغاني الهادئة، اعتاد على عودة الأبِ من عمله، وبراء من مدرسته، والأموميّةِ الجّميلةِ...

اعتاد على المناسباتِ والضّحكِ والمشاكلِ العائليّةِ، اعتاد على الزّياراتِ العائليّةِ، لكنّه لم يعتد على الفراق الطّويل...

انطلقت الطّائرة، وسماء الوطن تبتعد، والغيمة المجاورة للمنزل تبتعد وكلُّ شيءٍ يبتعد...

براء يرتمي في حضن أمّه ويلقي نظرةً من النّافذة إلى الوطن...

السّماء تمطر أم نافذة الطّائرة؟

وضع براء رأسه على رأس أخيه المختبئ في بطن أمّه، يريد البقاء في الدّاخل لم يخرج خوفاً من الوداع، يسمع براء صوت بكاء أخيه، فبكى معه....

هبطت الطّائرة في محطّتها وبدأت الغربة تقتلع قلوب أهلها...

دخلوا منزلهم الجّديد بإحباط وكأنَّ هناك فيروساً يقتلع مشاعرهم...

لم يعتادوا العيش، كان من الصّعب جدّاً فتح صنبور مياهٍ يختلف عن صنبور مياه بيتهم القديم، الباب مختلف، والنّافذة مختلفة، والأسرة مختلفة، الجّدران والذّكريات المنقوشة عليها مختلفة وتطوّر البيت تخلّفٌ عقيمٌ بالنّسبة لهم...

يتقدّم الزّمن بالعمر وما زالوا مغتربين، ويأتي مولودهم المغترب أحمد...

وبعد فترةٍ من الزّمن...

أحمد: أمّي، أين كنّا نعيش قبل أن نأتي إلى هنا؟

الأمُّ، يدخلها العجب والتّردد: كنّا.. كنّا نعيش هنا ولكن في منزلٍ صغيرٍ جدّاً لهذا السّبب انتقلنا إلى هذا المنزل...

أحمد: وأصوات بكاء أخي عندما ارتمى في حضنك،

وأصوات الطّائرة التي ما زالت تلامس أذني، كانت هنا أليس كذلك؟!

كان براء يتنصّت للحديث، فجاء وقال لأمّه: لا تخبّئي عنه، أخبريه، أخبريه عن سريره الّذي كان في انتظاره، أخبريه عن الألعاب والصّور، أخبريه عن منزلنا الّذي يحنّ إليه، أخبريه عن مدرسته والأصدقاء، عن الجيران وشوارع حارتنا، عن الدّكان والطّرق والأرصفة، والأزقّة الضّيقة، أخبريه...

أريد العودة، ألم تشتاقوا لكلِّ هذا يا أمّي؟!

انتهت جميع لوحاتي الّتي حاولت رسم منزلنا القديم فيها، ولكن لا شبيه، انتهت جميع أسطري الّتي وصفت بها منزلنا، وانتهى حبر قلمي الّذي يخبّئ كلماتي الصّادقة، ألم يحنَ وقت العودة؟

لم تقدر الأمّ على سماع همسات براء التي تنطق شوقاً وحنيناً، ولم تقدر سماع هطلات دموع أحمد، اكتفت بالمغادرة...

اجتمعوا مساءً وتداخلوا أطراف الحديث وبدأت عند صرخة قلب براء، لتتحدّث الأمّ قائلةً لزوجها: متى سنعود إلى موطننا يا عزيزي، أم نسيت؟..

الأب: كلّا، بل كلَّ يومٍ أحاول اتخاذ قرارٍ ولكن أتراجع خائفاً...

براء: نعم ستخاف، كلامٌ صحيحٌ، ستخاف من ضريبةِ غرفتكَ، ستخاف من باب منزلنا القديم، ستخاف من عقابِ وطنكَ على هذه المشاعر الخامدة على حنينك الزّائفِ، ستخاف النّظر في جرس منزلنا، ستخاف من المفاتيح والأبواب، من صوت الماء الذي يتسرّب من سقف غرفتي، لن يكون المنزل بانتظارك أبداً، سيكون معتماً عند عودتنا...

وكأنَّ اللهفة تقتل براء، وأحمد يستمع فقط كالمكفوف لا يستطيع أن يتكلّم لا يعلم ماذا سينطق... ماذا سيهمس أوّل الحروف، إنّه متفاجئٌ جدّاً...

بعد نقاشٍ حادٍّ دام وقتاً طويلاً، قرّروا العودة في بداية الأسبوع المقبل...

يتبع....

الرّواقُ الحزينُ...

قفصٌ جميلْ...

ذاك الواقع المحزن كل ليلة، لم أعد أمتلك أيّ شيء...

لقد اشتقت لنفسي أن تعود كما كانت...

لم أعد أريد شيئاً سواي...

لا أريد الحبَّ ولا أريد الفراق، ولا الماء ولا النّار...

يراودني كلَّ ليلةٍ شبحي الذّاتيُّ...

يحدّثني ويدخلني في معقل المجانين، في متاهةٍ شديدة الظّلام...

لم يكن لديَّ حلٌّ سوى الغربة عن هذا العالم، الغربة إلى رواقي وذاتي...

فالغربة لا تندرج تحت مفهوم الابتعاد عن الوطن....

فيوجد الغربة إلى الذّات، والغربة عن الذّات، التّناقض

موجودٌ في الغربة أيضاً، ويوجد الغربة إلى شخصٍ يفهم هذا التّناقض، ويوجد الغربة إلى رواقٍ معيّن، ويوجد الغربة عن الوطن، جميعها غربة لكن يختلف فيها نمط التّعايشِ الرّوحيِّ...

❖قصّةُ الرِّواق الحزين...❖

صباحٌ مطريٌّ جميلٌ...

رصاص مدينتي لم يتوقّف بعد...

والآن يبدأ انهزامي الشّديد...

استقيظ وأجلس في رواقي الحزين مثلي...

وفي جواري كتبٌ وأوراقٌ وأشياءٌ مبعثرةٌ...

أبحث عن شيءٍ يحسّن مخيّلتي وتفكيري...

كلُّ أحلامي تيتّمت بعد جميع محاولاتي الفاشلة...

كان النَّاس بالنِسبة لي بردٌ ، وأنا مريّض...

مريضٌ أتلحّف بِـأفكاري...

أتلحّف بمصطلحاتي الغريبة والمتناقضة...

تلك البدائيّة تلاحق رأسي مراراً وتكراراً...

بدأ الضّوء يتلاشى في غرفتي...

أتأمّل النّجوم وأحاول عدّها أريد خرق قواعد الطّبيعة «المئتين والأربعين»...

أحاول خرق جميع الأشياء المعتادة للبشر، كقصّتي الّتي اكتبها...

حتميّة الأمور في نقصاني الجّميل، أريد خلق التّناقضات المختلفة...

كل شجرةٍ تحافظ على أوراقها الّتي تذبل كلَّ ليلةٍ كي لا تعتري وتصبح مجرّد أغصانٍ خشبيّةٍ...

وأنا أحافظ على رواقي الحزين كي لا أبقى مجرّدَ عبارةٍ سوداويّةٍ منقوشةٍ في تاريخ غرفتي المظلمة...

❖ ❖ ❖

منزلٌ يتيمٌ (يوم العودة)...

حزموا أمتعتهم وانطلقوا بلهفة ولم يودّعوا أيّ شيءٍ، لم تكن ذاكرتهم قادرة على خيانة ذكريات الماضي...

انطلقوا بالطّائرة، وحلّقوا في سماء وداع الغربة، ولكن أحمد احتفظ بشيءٍ من غربته ولم يعلم به بعد...

لم تسع فرحتهم سماء الغربة، يوحّدون قلوبهم ليرمّموا جرائم الغربة بداخلهم، لكن لم يستطع أحمد شيءٌ ما بداخله يشعره بعذاب الغربة...

والآن هم في طريقهم إلى المنزل، منزلُ السّعادةِ والألمِ...

وصلوا، وما زال البيتُ صامداً، توقّع عودتهم ولكن المدّة كانت طويلة جداً، الأزهار تفتّحت واحمرّت خجلاً...

دخلوا وكأنّ أغراض المنزل تستقبلهم، أشعلوا الموسيقا التي اعتاد عليها المنزل، وبدأ كل فردٍ بترتيب أشيائه الخاصّة به، وأحمد يرتّب سريره الّذي لم يحتضنه وألعابه البائسة، عادت الحياة إلى المنزل...

بعد أيام...

ذهب أحمد ليتناول الطّعام مع العائلة كالعادة، وفجأة سقط أرضاً...

كابوس الغربة يراوده...

قاموا بنقله إلى المشفى والخوف يراودهم، بعد عدّة تحاليل...

الأب: كيف حال أحمد أيّها الطبيب؟

الطّبيب وكأنّ لسانه قد قطع، متردّدٌ جداً: ليست جيّدة، لكنّه سيبقى تحت المراقبة لفترةٍ قصيرةٍ...

الأب بحزنٍ: حسناً، أشكر جهودكم...

وما زالوا ينتظرون...

الجّميع متوتر حتى الأطباء المشرفين عليه، الأمُّ تبكي، وبراء يصرخ، والأب يضرب رأسه بحائط المشفى...

نادى الطّبيب لوالد أحمد وأخبره بسرطان ابنه، تدمّر الأب وشعر بوحدة قلبه، استقلاليّة الغربة وما حمل معها أحمد، لم يأخذ شيئاً منها سوى ذاك المرض الخبيث...

الطّبيب: لا يوجد هنا الأجهزة الكافية لمعالجة أحمد، يجب عليك أن تغرّبه ليتمَّ علاجه بالشّكل الكامل...

انهار الأب وكأنَّ سيناريو الغربة يعاد في ذهنه...

بعد ثلاثة أيام خرج أحمد من المشفى وعاد إلى المنزل، يحاول الأب إخفاء حزنه الشّديد عنه وعن براء وأمّه...

وعندما جاء الأب ليطمأنَّ على أحمد..

الأب: كيف حالك يا بُنَي؟!

أحمد: لست بخيرٍ يا أبي، ماذا حدث لي؟

الأب: لقد فقدت الوعي فقط، وارتفع ضغطك وتم نقلك للمستشفى لا تقلق يا عزيزي هذه الحالة تحدث كثيراً، عندما كنت في عمرك حدثت معي في المدرسة...

أحمد: وماذا جرى؟

الأب: نقلوني إلى المستشفى ثلاثة أيّامٍ وأخرجوني....

أحمد: حسناً، ولكن إن كنت تخبّئ شيئاً قله يا أبي سأتقبّل الأمر أعدك...

تلعثم الأب بكلامه قائلاً بتردّدٍ شديد: كلّا.. كلّا لا لا يا بني، لا.. لا يوجد شيءٌ أخبّئه عنك أبداً، إنّ، إنّك سليمٌ لا تقلق...

وبعد ذلك في الاجتماع العائليِّ مساءً، اقترح الأب أن يذهبوا في استراحةٍ إلى الغربة...

لم يوافق أحدٌ منهم على هذا الاقتراح، شعر أحمد بشيءٍ غريب تجاه سيناريو الغربة المكرّر...

أحمد: أنا متعبٌ قليلاً سأذهب إلى غرفتي لأخذ قسطاً من الرّاحة...

بدأت الأمُّ تراقب حالة أحمد لم تصدّق ما قاله الأب...

تمددّ أحمد في سريره وبدأ البكاء بصوتٍ منخفضٍ، يشكّ أنّه مصابٌ بمرضٍ خطيرٍ...

في اليوم التالي....

جاء أحمد لأبيه، وقال له: إن كنت مصاباً بمرضٍ خطيرٍ أخبرني، أعلم، أعلم أنّني مريضٌ، أخبرني ما هو المرض؟

الأب: هه، لا يا عزيزي هذه مجرّدُ أوهامٍ فقط لا تخف أبداً، ارتفاع ضغطٍ فقط...

أحمد: على أيّ حال، لن أذهب لأيّ مكانٍ سأموت هنا، وأدفن هنا...

رحل أحمد يتدرّج قليلاً خبث مرضه يصيبه بالجّنون...

اتّصل بأخيه ومشوا سويّاً، بدأ براء ينصح أخاه، أقنعه بأن يذهب لوحده مع أبيه إلى الغربة، وبعد حديثٍ طويل استمع أحمد لكلام أخيه...

في المساء جمع أحمد العائلة، وقال: أبي لا أحد يريد الذّهاب في استراحة لا براء ولا أمّي ولكن أنا بحاجةٍ للرّاحة وأريد الذّهاب من فضلك يا أبي...

الأب ومشاعر الحزن والفرح تمتزجان في دمعةٍ متألفة: إذاً سنذهب بعد غدٍ....

يتبع....

حياةُ الرّاحلين...

لم أدرك مدى هذا الشّك...

قررت الابتعاد عن الجميع والإمعان في التفكير...

عدم الشّك، والاستقرار الدّاخليّ، والعودة إلى إيقاع الفرح مازلت مصاباً بأزمة الضّياع...

مسرحيّة الطّفل السّعيد انتهت، وبدأت حياة البؤس الفظّاء سيناريو كاذب، وحوارٌ خائن، وتوحّدٌ مرضيٌّ بائس...

خريفٌ يعود إلى الخيال بشكلٍ متطفّلٍ...

ربّما الغربة كانت أجمل (حياة الرّاحلين).

طفلٌ في عمر الثّامنة، يعيش مأساةً دمويّةً، حرباً وطنيّةً، وتشوّهاً بالتّفكير، مجتمعه متلوّثٌ، والغربة تخطف أبيه، ابتسامته تعمُّ المكان رغم هجران كلِّ شيء، يصمد تحت قيود الألم، اعتاد الأمل تحت ضغوطات الجّميع...

في شتاءٍ ما اشتدّ المطر، يخاف الخروج من المنزل، أخذ مظلّته ورحل، في يده حقيبة سفر، لم يكترث لأيٍّ شيءٍ...

يهمّه الرّحيل فقط...

وصل إلى الطّائرة...

بدأ الحنين يدفعه للعودة، لكن كان قراره يسيطر على عقله...

غدا مندفعاً يصعد الطّائرة دون أن يأخذ نظرته الأخيرة للوطن

جلس في مقعده، وانتظر...

ستقلع الطّائرة بعد خمس دقائقٍ...

ها هو يستعدُّ لحياةٍ جديدةٍ...

أقلعت الطّائرة، وارتمى على النّافذة...

الطّائرة لامست الغيوم...

أمعن نظره وبدأ يبحث عن ثقبٍ في الغيوم يرى بهِ وطنه، الحنين يقتله، ولا مفرّ له الآن...

بدأ مسلسل الذّكريات يزور عقله...

لكنّه رحل ولم يدرك شوقه الجنونيُّ...

رحل ولم يعدْ أبداً...

منزلٌ يتيمٌ (يومُ الوداعِ الأخيرِ)...

حزموا الأمتعة وفي لحظة الوداع انحنى أحمد أمام أمّه وقبّل يدها وبكى، وقال لها: سأعود عن قريب لا تقلقي يا أمي...

كما أنّه حضن براء وهمس في أذنه: شكراً لك يا أخي، سأوفي بوعدي لكَ وأعود معافى إن شاء اللّه...

انطلقوا بأوّلِ طائرةٍ وحلّقوا فوق سماء الوطن...

أحمد نائم والأب ينظر إليه بحزنٍ شديد، وقال بينه وبين نفسه: ستعافى يا أحمد لا تقلق سأخذك إلى أحسن مشفى لو مهما كلّفني الأمر...

وصلوا إلى بلاد الغربة الخبيثة وباتوا يوماً كاملاً في الفندق...

وفي اليوم التّالي لم يكن هناك اتّصالٌ بين أهل الغربة وأهل الوطن...

استيقظت الأمُّ باكراً لتوقظ براء من أجل مدرسته...

الأمُّ: براء عزيزي، استيقظ السّاعة السّابعة الآن، كي لا تتأخر عن مدرستك...

لم يستجب براء، عادت الأمُّ الكلام نفسه ولم يستجب أيضاً، وقفت مصدومةً وتوقّف الزّمنُ معها وركضت هارعةً إليه...

الأم: عزيزي براء، استيقظ...

وهي تهزُّهُ وتربّتُ على وجهه ولم يستجب...

اتّصلت بالإسعاف وفي قلبها وجع براء ووجع أحمد والغربة لزوجها

تنتظر في المشفى وهي على عتبة الموت تشعر وكأنَّ قلبها ينبض نبضة، ويقف عشر دقائق ثمَّ يعود على هذا الشّكل...

خرج الطّبيب من الغرفة...

الطّبيب: أنتِ أمّه؟

الأمُّ: نعم...

الطبيب: لقد خسرنا براء...

توقّفَ الزّمانُ والمكانُ وحتّى الكلام، وقلب الأمِّ أيضاً...

بقيت الأمُّ في المستشفى تحت العناية...

في الغربة تخبطاتٌ أيضاً...

ذهب أحمد وأبوه ليأخذ أوّلَ جرعةٍ لمرضه وهو مقيّد القلب...

وبعد العلاج الأوّلِ له، اغمي عليه وبدأت ضربات قلبه تنخفض تدريجيّاً...

والأب لم تفارقه دموعه...

افترق الجّميعُ ولم يعلموا الأخبار الحاصلة بين الغربة والوطن...

جاء الأطباء مسرعين، سنخسر المريض اصدموه كهربائيّاً، ولم يستجب قلب أحمد، أثر أخوه المتوفيّْ قتل قلبه...

الأب على نافذة غرفة العمليّاتْ يراقب خسارة ابنه، سيرمي نفسه في الهاوية....

أتى بورقةٍ وقلم وأخذ يدوّن رسالةً شعريّةً لأحمد يخبّئها في قبره...

وفي نفس اللحظة توفّى أحمد وأمه...

حاولوا الاتّصالَ بالأب من الوطن ولم يستطيعوا...

عاد الأب مع جثّة أحمد ليدفنه في الوطن، عندما فتح باب المنزل لم يجد أحد...

الأب: براء، عزيزي، أين أنتَ؟، أين أمُّكَ؟، أين أنتم؟

لم يجد أحد ذهب ودفن جثّةَ أحمد، وإذْ باتّصالٍ غريبٍ يخبره عمّا حصل في غيابه...

ذهب ليأتي بجثّةِ براء وزوجته ويدفنهم، والدّمار يرتديه، كماردٍ تفجّرَ الفانوس الّذي يخرج منه...

بعدما دفن الجّميعْ...

عاد إلى المنزل واسترجع كلَّ ذكرى مع الجّميعْ، ثمّ بكى بشدّةٍ، وذهب إلى سرير أحمد ليسترجع ذكرياته، ومن شدّةِ عذاب الغربة والذّكرياتِ توفّى في سرير أحمد وهو حاضنٌ لصورةٍ تجمع أفراد العائلة...

❖ ❖ ❖

الرّسالةُ الأخيرةُ...

إليكَ ياعزيزي أحمد...

إليكَ يا ساكنَ الترّابْ...

إليكَ يا أجملَ عذابْ...

يا من كانَ للحياة مدخلاً وللبسمة بابْ...

يا من كانَ لشعر الحبِّ وخواطر الغزل أرقى كتابْ...

يا من كوّن أوراق شجرة العائلة ورمّمها بعد أن كانت سرابْ...

يا من كان ازدهاراً لكلِّ خرابْ...

....

إليكَ يا نائم اللّيل والنّهارْ...

إليكَ يا إله الحبِّ يا عشتارْ...

يا من سيطر على عرشِ قلبي ولم ينهارْ...

يا من كان للحبِّ منزلاً ومدوّنةً لأجمل الأسرارْ...

يا من كان الصّباحَ المشرق مراراً وتكرارْ...

يا من كنتُ من ألحانه العذبة الحنان أختارْ...

يا من كان لي سلاماً وعند عطشي ماءً وفي بردي نارْ...

....

يا من كان للوفاء عنوانْ...

يا من كان أنبل إنسانْ...

....

إليكَ يا عزيزي الوداعْ....وإليَّ البكاءُ والصّراعْ...

إليكَ يا بنيَّ السّلامْ....والذّكرُ الجميلُ والكلامْ....

إليكَ يا أحمدُ الفراقْ....واترك قلبي في احتراقْ....

....

إنّي أناديكَ، فهل تسمعني؟

إنّي أناجيكَ، فهل تمنعني؟

أم تخدعني؟

فهل الأحلام بكَ ستجمعني؟

....

أنتَ في قلبي رحّالٌ صغيرْ....

بالحبِّ ينادي ويشيرْ...

عدْ واصنع المستحيلْ...

فما عشقتك لأرى من وجودك القليلْ...

ـ 2 ـ

الغموضْ...

يعرف أنَّ الغموض هو شبحٌ يستهدف المشاعر والأحاسيس ويخزّنها داخلَ العقلِ الباطنيِّ ليقضي على صاحب تلك المشاعر، بانعزاله عن المجتمع ووحدته وعشقه الليل وكره الأصدقاء وجنونه وكلُّ شيءٍ يؤدّي للظّلامِ والحزن والأشياء المخيفة...

اللجوء إلى الهاوية والافتراس والوحشيّةُ من أكبر نتائج الإصابة بالغموض....

الخروج الليليُّ والوحدانيّةُ والمرضُ النفسيُّ كلّ هذا يعتبر دليلاً عن موت المشاعر، عن السوداويّةِ في جميع الأشياء المعنويّة والإنسانيّة، وقتل ما وراء الشّيء ودفنه في روح الإنسان لعدم خروجه إلى الأشخاص، ليترك ندبةً روحيّةً لا تنسى...

فلا يتوقّفُ الغموض على الذّاتِ الإنسانيّةِ، بل إنّهُ من الممكن أن يصيب عالماً بأكمله أو حيّاً أو قاعاً مهجوراً أو بقعةً من الأرض، فالغموض قادرٌ على تشكيل ثقبٍ أسود يبتلع به كلَّ شيءٍ جميلٍ، ويخطف كل الألوان ويحوّلها إلى اللون الأسود القاتم، ويجعل من جميع الكائنات سراباً يحلّقُ مع نسمات الظّلام ليشكّلَ خفافيشَ الليلِ السّاكنةِ الوحشيّةِ...

فالغموض هو تشبيهٌ لقلمٍ يكتب دون حبر، وغابةٌ سوداويّةٌ مهجورةٌ لا يعيشها إلّا الخوف والظّلامُ والأصواتُ الرّيحيّةُ والنّباتاتُ السّامّةُ، وبيتٌ مسكونٌ بالأشباحِ والشّياطين والأرواحُ النّائمةُ تحت التّرابِ والمقابرُ الحيّةُ، بيتٌ ثابتٌ دون أعمدة دون أساسٍ يقاوم الهواء دون أيِّ شيءٍ يزعزع كيان هذا البيت...

فكلُّ هذا يشكّلُ عقدةً من الغموضِ البيئيِّ....

الغموض هو ما وراء ماهيّةِ الأشياء، فلا يمكن معرفتها بسهولةٍ، وفي بعض الأحيان لا تُعرفُ أبداً، في هذه الحالة تدعوه الغموض القاتم...

وهذه الأنواع من الغموض مدمّرةٌ بشكلٍ تدريجيٍّ، فتبدأ بخطف الأشياء وتركُ صورةٍ رمزيّةٍ عنها بحيث لا تُدرك، ومن ثمَّ تشكيل ندبةٍ يحيط بها اللون الأسود من كل الأطراف، ومن ثمَّ يقوم بقلبِ صورةِ الأشياء إلى معاكستها...

فالجّميلُ يصبح قبيحاً، والفرح يُدفنُ مكان الحزن، والابتسامةُ تصبح عبارةً عن هطلاتٍ مطريّةٍ من العين، والكمال يصبح فراغاً معدوم الأشياء، والحياة تصبح موت، والفراشة تتحوّلُ إلى خفّاشٍ، والعالم يصبح ثقباً أسودَ يبتلع كلَّ الأشياءِ، والأشياءُ الثّابتةُ والصّحيحةُ تتحوّلُ إلى متناقضاتٍ خاطئةٍ وغريبةٍ وغيرَ مفهومةٍ...

مصدرهُ غريبٌ لا إدراك له حتّى لصاحبه المستهدف بهذهِ السّوداويّةِ الغامضة...

كلّما ازداد الغموض ازداد معه انجراف البقعةِ السّوداءِ على وجهِ الكرةِ الأرضيّةِ، وازداد عمقها واتساعها ليصل إلى عالم الجّنِ والشّياطينِ...

عندما يزداد انجراف هذه الحالة تخرج الأشباحُ السّوداءُ لتسكن هذه البقعة السّوداويّة...

فيبدأ الدّمارُ والهيستيريا من هذه البقعةِ الصّغيرةِ حتّى تكبر، ويزداد عمقها وحجمها لتنفجر شياطين الكون السّوداء، وتلطّخُ الكرةَ الأرضيّةُ بالغموضِ الحيِّ...

فيبقى الظّلامُ يعمُّ العالم حتّى الزّوالُ الأبديُّ....

المقبرةُ الغامضةُ...

الأيامُ تمرُّ، وفي كلُّ يومٍ تختلف الأحوال...

فذاك العاشق قد أنهى علاقته، وذاك البائس قد وجد من يسعده، وذاك المكتئب قد خرج من هذه الدّنيا بعد العزلة والوحدة ثمّ الانتحار، وآخر الأشخاص كان شخص الظّلامِ...

....

في شتاءٍ باردٍ للغاية، حيٌّ عشوائيٌّ شبه مهجورٍ لا أحد يعتني به، من أسوء الأحياء في المنطقة.

شخصٌ يعيش بمفرده، يخرج كلَّ ليلةٍ ليسير دون أن يراه أحد، منعزلٌ عن المجتمع وخرافاته...

الجّميعُ يجهلُ سبب وحدته، جاء محقّقٌ سكن في هذا الحيِّ بجواره واستغرب من حالة هذا الشّخصِ...

فقرّر المحقق أن يراقبه ربمّا يعلم ما سبب انعزاله التّامْ...

دقّتِ السّاعةُ الثّانيةُ عشرة بعد منتصف الليل...

والحيُّ يشهدُ هدوءٌ تامٌّ، إذْ برجلِ الظّلامِ يخرج من كهفه، ويمشي...

عندما ابتعد عن مدخل الحيِّ، ذهب المحقّقُ ليدخل منزله ربمّا يعلم شيئاً...

خلعَ البابَ ودخلَ، وقف مكانه وتعجّب مما رآه...

قبرٌ في منتصف المنزل..!

اقترب أكثر وأمعن النّظرَ، مكتوبٌ على القبر اسمٌ، ربمّا اسم الشّخص المظلم ذاك، انصدم المحقّقُ ولم يصدّق ما يرى، عاد إلى منزله وهو مدهوشٌ جدّاً...

استيقظ صباحاً وذهب إلى الحيِّ ليكمل ما يريد معرفته، فسأل (جيمس) وهو من أحدُ سكّانِ الحيِّ: من يسكن في ذاك المنزل؟

جيمس: كما يقال أنَّ صاحبَ المنزلِ توفيَّ في حادث سيرٍ أليمٍ هو وصديقه اصطدما بسيّارةٍ تحتوي على شرطيّينْ....

المحقّق: ليلة البارحة رأيته خارجاً من منزله...!

ضَحِكَ جيمس، وأجابه: يبدو أنّكَ تحتاجُ إلى قسطٍ من الرّاحةِ، أو أنّكَ مصابٌ بعقدةٍ نفسيّةٍ...

المحقّق: شكراً لكَ، يبدو أنّني بحاجةٍ إلى قسطٍ من الرّاحةِ...

ذهب المحقّقُ إلى منزله ولم يخرج حتّى المساء ليراقب غريب الأطوار ذاك...

في تمام السّاعةِ الثّانيةِ عشر، فُتِحَ باب منزله وخرج الرّجلُ المظلمُ من جديدْ....

بدأ المحقّقُ يلاحقه...

وإذْ بالرّجلِ يذهب إلى المقبرة ويجلس بجانب قبرٍ، وبدأ يتّهمُ نفسه بأنّهُ كان السّببَ في وفاة صديقه بحادث السّير ذاك...

في السّاعةِ الواحدةِ بعد منتصف الليل ذهب الرّجلُ إلى السّيارةِ الّتي تدمّرت أثناء الحادث ليعود إلى المنزل...

عندما ذهب المحقّقُ ليتعرّفَ على صاحب القبر، كان صاحب القبر جيمس....

لقد دخل المحقّقُ في متاهة الموتى، عاد إلى منزله وذهب ليستريح قليلاً....

وفي صباح اليوم التّالي ذهب المحقّقُ إلى قسم الشّرطةِ ليبحثوا في القضيّةِ...

انتظروا حتّى أصبحتِ السّاعةَ الثّانيةَ عشر تماماً بعد منتصف الليل...

ثمَّ جاء شرطيّانِ فقط والمحقّقُ إلى موقعِ الجّريمةِ...

لم يجدوا أحداً، الحيُّ مهجورٌ بأكملهِ، ولا يوجد أيُّ إشعارٍ لوجود الحياة في الحيِّ هذا...

المحقّقُ متحدّثاً مع الشّرطيّينِ: سأذهب لإحضارِ الطّعامِ من منزلي، لأنّنا نحتاج إلى وقتٍ طويلٍ...

الشّرطيُّ: إذاً سنذهب نحن إلى المقبرة، عندما تنتهي إلحق بنا...

ورحل المحقّقُ...

ذهب الشّرطيّانِ إلى المقبرة وبحثوا عن قبر جيمس...

عاد المحقّقُ إلى المقبرة وبيده الطّعام، لم يكن الشّرطيّانُ هناك، ظنَّ المحقّقُ أنّهمْ عادوا إلى قسمِ الشّرطةِ...

اتّصل المحقّقُ بقسمِ الشّرطةِ، فأجاب عليه رئيس القسم...

المحقّقُ: مرحباً، أنا المحقّق، منذ قليلٍ قُمتَ بإرسال شرطيّينِ إلى المقبرة، ذهبت لأحضر الطّعامَ وعندما عدت لم أجدهم، فهل عادوا إلى القسم؟

رئيس القسم غاضباً: هذه المرّةُ السّادسةُ التي تتصل فيها وأجيبك الجواب ذاته، أنَّ عنصري الشّرطة ماتوا جرّاءَ حادثٍ مع سيّارةٍ تحوي على شخصين من الحيِّ نفسهِ...

علماً أنَّ والد المحقّقِ كان يخبره أنّهُ لا يوجد قسمُ شرطةٍ في هذا الحيِّ أبداً...

وحشيّةُ الكونْ...

صعوبةُ التّأقلمِ مع هذه الوحوش البشريّةِ مع هذا العالم الفارغ المملوء بالدّمارِ...

معاناة النّفسِ مع حدادِ الرّوحِ لتُدفنَ في التّرابِ، لتعاقب النّفسُ نفسها إثر قتلها بأيدينا...

أصبحت الحياةُ عبارةً عن معادلةٍ لها طرفان...

الطّرفُ الأوّلُ الفرح، والثّاني الحزن...

عندما تفرح تحبُّ الحياة وعندما تحزن تتمنّى الموت...

حماقة النّاسِ لا تدرك بالعينِ المجرّدةِ ولا بالعقل المفكّر ولا بالتّعمقِ النفسيِّ، لا يدركها سوى من تعامل مع النّاسِ بحماقةٍ...

قد يكون خائناً بعض الشّيءْ، فالوفاءُ ليس من طبعِ النّاسِ...

اعتادوا الخيانة فكان أشدّهم أحقرُ النّاسِ...

لنبتعد عن الخيال، ونقتل الواقع لنعيش بالأوهام، فنعود إلى الماضي لنعيش ذنوبنا المقترفة في واقعٍ مجرّدٍ عن التخيّلاتِ والأوهام بصورةٍ إجراميّةٍ منقولةٍ من تفكيرنا المظلم...

خطيئتنا عندما دخلنا تلك اللعبةَ السّادجةَ التي أوقعتنا في متاهةٍ تدور كلَّ يومٍ ما بعد الألفِ دورةٍ وتغيّيرُ في مسارها لتحزنك أو تسعدك أو تكسر قلبك...

لعبة الحياةِ القذرةِ... جريمةُ القلوب البيضاء عبارةٌ نستخدمها لنطوي صفحةَ الخيرِ ونبدأ بالأذى، لنكون قادرين على فعل الذّنوبِ القذرةِ لندخل قلوب الناس...

نفتعل البراءة ونتصنّعها لنتجسّمَ على هيئةِ بشريٍّ مصتنعٍ بكبريائه، فكان يعلو كلما زاد من اصطناعه، ثمَّ يندم...

ـ 3 ـ

تشعّبت الحرب لتكون سبباً في نزيف الأحياء، ونزيف الأوطان...

كان أثرها على الحياة الإنسانيّةِ كبيراً جدّاً، فلم يكن الدّمار والحطام والخراب طعاماً كافياً لها، بل تسلّلت إلى حياتنا ودمّرتها...

ولجأت إلى ضياعها واقتصاص جزءٍ منها لنعيش غرباء عن أنفسنا، لا نميّز بين المزيّفِ والحقيقيِّ...

دوّامةُ الحرب تفرض كثيراً من الأشياء الّتي لم يعتد عليها الإنسان وقسمت حياته إلى نصفين، كلُّ نصفٍ له مرحلةٌ يكون المسيطر فيه...

والقسمان لا يتقاطعان سوى في النّهاية، لتكون قد أنهت حياة الإنسان الّتي كانت طُعماً لها...

وعندما يتقاطعان يحدث انفجارٌ مدويٌّ يأكل جميع كوامن الإنسان ويقود به إلى الهاوية، ومن الممكن أن يكون

القسمان غير متعادلين فلا يتقاطعان أبداً، ولكن في أيِّ حال ستدمّرُ شيئاً من حياتنا...

إمّا فراقٌ لأحد الأشخاص العزيزة علينا، أو فراق أنفسنا وهو الانفصام المتعدّد المتأصّل من غموض حياتنا، واكتشاف حقيقة أشياءٍ نعيشها ولكن لا ندركها، فيصبح من الصّعب جدّاً الاعتياد عليها...

وتؤدّي أحياناً إلى هجران الذّات والابتعاد عن كلِّ شيء...

أو الفراق الإجباري وهذا الفراق صعبٌ جدّاً، ويدمّر العالم إلى نصفين في وجه الإنسان....

فالحياة مبنيّةٌ على القيم الأسريّة والاجتماعية...

عندها ستأتي الحرب لتفكك الحياة والأُسرْ...

تخطف جميع الألحان الفرحة وجميع الابتسامات وجميع الألوان...

وتُخلِّفُ الحزن والشّؤم والاكتئاب والدّموع والغيمة السّوداء الكبيرة الّتي تغطّي البقعة الّتي هاجمتها...

تُخلِّفُ ركام الأبنية والشّوارع والأضواء، ركام الحياة السّوداء الّتي تركتها لنا...

لنعيش في أوهامٍ وأحلام...

رؤيا...

بدأت الحرب والنّاس صاغت حكاياها، بعضهم تيتّمَ، وبعضهم فقد عزيزاً عليه، وبعضهم يبكي على صديقه، والآخر يتألّم شوقاً لمحبوبه...

لم يكتمل وجه النّهارِ بعد أن تحطّمت نصف المدينة، القصفُ والدّمارُ والإجرامُ وبعض الخلايا النّائمة...

طفلٌ في بطن أمّهِ ميتّمُ الأب، وحرقة الأمِّ على زوجها...

كان سعيداً جدّاً عندما علم بأنّهُ سيرزق بمولودٍ يحمل اسمه، لكن رصاص اللعنة خطف سعادة الأمِّ والطّفل...

بعد استشهاد أبيه بدأ يتخبّطُ حزناً في جدران بطن أمّهِ، والأمُّ تصرخ ألماً وشوقاً....

بعد شهورٍ جاء همام لكن لم تكن الأمُّ سعيدةً، تحاول البحث عن ملامح زوجها في وجه همام ولكن لم تجدْ شيئاً فيه إنّهُ يحمل صفاتها...

بعد سنةٍ، اشتدّت الحرب ولم ينتهِ القصف والرّصاصُ والمعارك...

قرّرت الأمُّ أن تأخذ همام إلى الميتم، وضعته في الميتم خوفاً من التّهديدِ الجّائرِ على الحيِّ الذي يسكنون به...

عادت الأمُّ إلى المنزل وقلبها يتلاشى في جسمها...

لم تعد قادرةً على الكلام، الدّموع سكنت عينيها...

جهّزت أغراضها بعد تخبّطات عقلها والنّزاعاتِ في تلافيف دماغها على قرار الهجرة، ولكن ليس بيدها حيلة، كانت مجبرةً بعد هذه الحربُ الشّرسةُ...

كان الأولاد في الميتم يستيقظون على صوت القذائف، وينامون على صوت الرّصاصِ، روتينٌ وحشيٌّ للغاية...

همام يتألّم ورصاص الحرب يتكلّم...

الأمُّ كانت عبارةً عن جثّةٍ تعيش دون جدوى...

هاجرت مع مجموعةٍ من السّكانِ عن طريق البحر، وهي في القارب وقفت على حافّتهِ تريد الغرق لا تريد حياة الغرباء، حياة الفراق والألم، المأساة المتجدّدة...

في جانبٍ آخرٍ من الوطن بعد سنواتٍ، بعد هدوء نار الحرب، زوجان متألفان مرتبطان بشكلٍ روحيٍّ جميلٍ، يحلمون بإنجاب طفلٍ، ولكن لم يرزقوا به...

ذهبوا إلى الميتم فرحين بأنّهم وأخيراً سيجرّبون شعور الأهل المسؤوليّةِ ، الرّعايةِ، سيجرّبون شعور الحبِّ مع طفلٍ يجمعهم...

أعجبهم همام، لهف قلب الزّوجةِ له وشعرت بأنّهُ مناسبٌ لهم جدّاً...

أتوا به واعتنوا فيه كثيراً ليكبر معهم....

أصبح وحيدهم ومدلّلهم الصّغير، وسمّوه مراد...

بعد سنينٍ طوال...

كبر مراد على يدهم، والأمُّ الحقيقيّةُ لعلَّها نسيت جميل قلبها، عملها هناك لكسب المال والعودة إلى وطنها لتزور قبر زوجها، لتزور أشلاء بيتها الذي التهمته نيران الحرب، لتأخذ همام وتحتفظ به حتّى تموت، لكن همام اعتاد على أهله الجّدد يظنُّهم أهله لم يشكَّ لحظةً في أمرهم، اعتاد على اسمه مراد لم يكن يعلم أنَّ اسمه همام...

وفي يومٍ راودته أمُّه الحقيقيّةُ في منامه قالت له: سأعود يا عزيزي سأعود يا همام...

استيقظ مرتعباً وركض إلى حضن أباه الدّافئ ليشعر بالاطمئنان...

وفي صباح اليوم التّالي قال لهم عن حلمه، قالت له أمّهُ: إنّهُ قَلَقٌ وخوفٌ من أصوات الحرب التي ولدت عليها يا مراد، أظنُّ أنّها مازالت في أذنك إنّها أوهامٌ يا عزيزي لا تخف...

لم يصدّق مراد كلامها، يسمع صوت أمّهِ الحقيقيّة تنده له: همام عزيزي سأعود لا تقلق...

يبحث عن دليلٍ ينتزع ما تبنّاه القدر له...

الوطن ينده باسم مراد ، والغربة تنده بالأمِّ، والاثنان لا يلتقيان، دافع الغربة كانت فكرةً قاتلةً لهمام...

... بعد أعوام...

تجهّزت الأمُّ للقاء الوطن، للقاء الابن، وزيارةٍ سوداءَ للمنزل، وسرير زوجها...

عادت ولديها لهفةٌ شديدةٌ للقاء همام ظنّت أنّه ما زال في الميتم...

ذهبت مباشرةً إلى قبر زوجها لتحدّثه بما جرى معها في غيابه، لتحدّثه عن شوقها له ولهمام...

رحلت بعدها إلى الميتم وسألت عن همام لم تكن الإجابة كما توقّعت بل كانت الإجابة في معقل الغياب، غياب همام، انضمامه لعائلةٍ جديدةٍ...

الاستفهام يدور في رأسها، وجرعةٌ من الصّدمةِ المدمّرة...

بدأت تبحث عنه في الطّرقاتِ، في الشّوارع، تحيا على صوت بكاءه أثناء إطلاق الرّصاص، لم تنسَ مظهره بقي نسخةً منسوجةً في ذهنها...

خرج مراد من المنزل يتدرّج، مازال صوت أمّهِ يدور في غضاريف أذنه: همام أتسمعني أنا أتيت ولكنّي أبحث عنك، همام سآتي لا تقلق يا عزيزي، همام، همام همام...

لا شيء ولكن بعض تخبّطات الأحلام والأصوات، وفيروسُ الشّوقِ يتلاعب بتلافيف دماغه...

ذهب إلى حديقةٍ تبعد عن منزله مسافةً طويلةً، رأى إمرأةً وحيدةً في بكاؤها تخبّأ رأسها خوفاً من وحشيّةِ هذا العالم، تشرب دموعها ندماً على ما فعلته...

حدّق النّظر إليها، تشبه الإمراة التي رآها في منامه، ربمّا هيَ...

ركض نحوها ليتأكّدَ إن كانت هيَ...

جلس بجانبها، وقال لها: لماذا تبكين؟

نظرت إليه وأكملت طريق البكاء، شارعٌ عميقٌ مظلمٌ جدّاً....

مراد: أتعلمين؟، لقد رأيتك في منامي تقولين لي سأعود يا همام،

من هو همام؟...

أهو شخصٌ تعرفينه أم ماذا؟ ولماذا أنا الشّخصُ المعنيُّ بهذا الكلام؟

نظرت إليه، وقالت: أنتَ هو عزيزي همام، أنت همام وحضنته باكيةً...

بعد أن انتهت، قال لها: أنا اسمي مراد لا أعلم من هو همام ولدّي أمٌّ وأب، كيف ذلك؟

الأم: لقد توفيّ أبوك عندما كنت في بطني وبعد أن أتيت إلى الحياة وضعتك في ميتم خوفاً عليك من الحرب وهاجرت إلى الخارج لأنَّ الحرب لم تهدأ في الحيِّ الّذي كنا نسكن به، وها قد وجدتك الآن، كيف حالك يا بني؟

مراد: كلّا، هذا خاطئ انا اسمي مراد وأسكن في الحيِّ المقابل للحديقة وأبي لم يمت وما زال على قيد الحياة...

الأم: لا، لا، هؤلاء ليسوا أهلك يا همام، أنا أمّكَ...

لم يستوعب همام ما قالته، يسمع طرفاً يناديه مراد، وآخر يناديه همام والعاصفة تدمّر كلّ شيءٍ في رأسه، لم يعلم ماذا يفعل، بدأت عيناه تنزف، وقلبه ينزف، بقي ساكناً دون أيِّ شيءٍ...

ركض مراد باكياً، وركضت أمّه وراءه وهي تنده: همام، يا بني، عد لم أصدّق رؤيتك، لا تحاول أن تذهب مرّةً أخرى، عد يا عزيزي، ودموعها تركض أمامها، لم تلحق به...

رحل إلى منفى بعيد إلى جبل الموت، عاش في وهمٍ وتخبّطاتٍ هنا وهناك...

كلُّ الأشياء بالطّبيعة وبه مقسومةٌ لقسمين نصفهم يقول مراد ونصفهم همام، لم يتحمّل كلَّ هذا وقف على حافة الجّبلِ ورمى نفسه في هاويةٍ مرضيّةٍ جنونيّةٍ قاتمة...

نيلزْ ومدفنُ الأوهامِ...

نيلز، مراهقٌ في الخامسة عشر من عمره...

يخوض حرباً عقليّةً...

لم تهدأ أصوات النّيران صباحاً ومساءً، القصف يقتل مدينتهم...

الجّميعُ مات في ملحمةٍ عشوائيّةٍ وبقي هو في ملجأ المبنى مختبئ...

خرج من ملجئه وهو ينادي لعائلته: أمّي، أمّي، أبي، أخي، أين أنتم؟!

فتح باب الغرفة ووجد جثثهم، سقط أرضاً وبدأ يجهش بالبكاء...

لقد رحل الجّميع، لم يبقَ أحدٌ سواه في المدينة...

ذهب إلى غرفته ليلملم حطام الحرب...

لم يبقَ شيءٌ سوى آلاته الموسيقيّة ودفاتره الشعريّة وبعض الهدايا الخاصّة به...

كان لديه صندوقٌ يحتفظ بهِ تحت سريره، فتحه وبدأ يتفحّصُ ما بداخله، جميعها أوراقٌ مبعثرةٌ، ورقةٌ من أمّهِ، ومعايدةٌ من أبيه، وذكرى من أصدقائه وأخيه، وقصيدةٌ لمعشوقته...

وجد أيضاً صورةً تجمعه مع عائلته حضنها وبكى...

استيقظ في حلمه بعد نصف ساعةٍ من رحلة النّوم والبكاء وهو على حاله...

أعاد الصورة لمكانها، وهنا لم يعد يصدّق ما جرى، كيف؟!

جلس وحيداً لا يشعر بشيء...

لم يعلم ماذا سيفعل؟

نادى من نافذته، من هنا؟

وإذْ بالمدينة تعيد سؤاله، من هنا؟

غريبٌ ذلك الشّعورُ...

صدىً يبشّركَ بالوحدةِ، جلس يفكّر في الجميع، ثمّ بكى...

بدأ يسمع صدى لأصوات أقدامٍ تتسارع رويداً، رويداً في قاع المدينة...

التفت إلى النّافذةِ، وإذْ بمعشوقته تركض هارعةً ودموعها منثورةٌ على وجنتيها....

نادى لها: تينا... تينا

تمهّلت...

وقالت بينها وبين نفسها: نيلز...نيلز، على الرّغم أنّك نيلز، متفاجئةً بوجوده...

ذهبت معه إلى المنزل...

تحدّثَ عمّا حدث معه وهيَ أيضاً...

حضنها ليأخذ ما بداخلها ويريحها...

نامت في ملجئه، فحملها ووضعها على السّرير لتكمل نومها...

رحل يبحث في بعض الأسواق التّجاريّةِ إذا تبقّى منها شيءٌ وسط هذا الدّمار...

جميع الأسواق محطّمة وركامها مبعثرٌ...

وجد مخزناً بالقرب من بيته...

دخل إليه أتى ما بداخله إلى منزله...

عندما وصل، وضع الأغراض على الأرض وذهب ليطمئن على معشوقته...

نيلز: يا للهول...!، هذا لا يعقل، أمّي....؟

ماذا تفعلين هنا؟....كادت الدّهشةُ تبتلع عينيه...

وجد أمّهُ تربّتُ على كتف محبوبته، ركض إليها بلهفةٍ ليحضنها، حضن الهواء وسقط أرضاً...

استيقظت معشوقته...

ذهبوا ليجولوا في مدينتهم ليروا الخراب...

ربّما هناك أحدٌ موجودٌ، لم يمت بعدْ...

عادوا بعد ساعتين أو ثلاث من كثرة الخراب والتّرحال الحزين...

لم يشعروا سوى بالحزن والألم...

أمّا الوقت بقي على حاله وكأنّه في لحظة الدّمار تجمّد...

وقف نيلز أمام مكان الباب...

نظر بدهشةٍ وكأنَّ عينيه ستخرجان من مكانهما...

نيلز: ماذا يحدث؟!

لقد شاهد أباه يمسك بحطام المنزل ويضعه في مكانه فيعود كما كان....

نظر أبوه إليه، وقال: أين أخوك، ألم يكن معكم؟....

نيلز، والخوف يقتطع حباله الصوتيّة: لا، لا يا أبي... أخي..أخي لقد ذهب إلى السّماء، هذا ما أعرفه...

عقدَ الأب حاجبيه، واشتدَّ انزعاجه، وملامح الغضب الظّاهرة عليه تدمّر مدينةً أخرى...

تمرُّ الثّواني...

ويأتي أخ نيلز وهوَ يبكي ونصف وجهه ممتلئٌ بالدّمِ، ويقول: أبي، لقد تركني نيلز في منتصف الطّريق، وكلاب المدينة هاجمتني وشوّهت وجهي انظر....

ومن بعيد أمُّ نيلز تأتي، تمشي وهي تتحدّث: لا يا بني، لا تبكِ يا صغيري العزيز، أعلم أنّ نيلز أنانيٌّ ولكن ليس بقصده، لا تبكِ يا عزيزي اهدأ...

نيلز، وهو يبكي: حتّى أنتِ يا أمّي...!

ذهبت تينا ووقفت بجانب أمِّ نيلز...

اجتمعت أشباح العائلة جميعها...

ونيلز خائفٌ جدّاً ومدهوشٌ بكلِّ شيءٍ...

بعد ثواني قليلة، يُسمَعُ صوت قنبلةٍ في ثياب تينا...

ثلاثة، اثنان، واحد....

كانت الأرقام تنطق لفظاتها الأخيرة لتودّعَ المدينة آخر سكّانها....

انفجرت ومات الجميع...

وهنا نيلز استيقظ من حلمه، عندما كان يفكر في جميع الرّاحلين ويبكي عليهم...

وعاد إلى المقبرة الحيّة الّتي يسكنها لوحده...

عاد إلى واقعه المجرّد من الأحبّةِ والإنسانيّةِ...

واقع الفراق الحزين...

ـ 4 ـ

المقصُّ....

في عصر الاختراعات البدائيّةِ...

أحدُ المحبّين للتجارب، عالِمٌ منطقيٌّ جدّاً...

كان يرسم تجاربه السّابقة على شكلِ مجسمّاتٍ على ورق، ولم ينجح بها، جميع تجاربه كانت فاشلة...

فبدأ بتجربةٍ جديدةٍ، كانت مرسومةً في عقله منذ زمنٍ طويل

لكنّها كانت خامدة، بسبب إجبار نفسه على صنع تجاربٍ يظنُّ بنجاحها ثمَّ يفشـل...

تجربته كانت اختراع المقصّ، تشبيهٌ يليق بها...!

أتى بورقةٍ تختلف عن باقي الأوراق التي كان يجري عليها تجاربهُ

أمسك قلمه، واستوحى من خياله خصلةً إبداعيّةً لكي يتفنّن بصنع ما يحب، بصنع ما يفكّر به منذ سنوات...

رسم مجسّمَ المقصِّ ممّا طلبه خياله، وعقله، وحتّى قلبه ليصنعه بالطريقة التي يحبّها هوَ...

تلك الورقة المختلفة عن جميع الأوراق بنظره كانت تشبهني...

كانت تعني له كلَّ شيءٍ بالنّسبةِ لتفكيره، كان يقول: مهما بحثت عن شبيهٍ لهذه الورقة، ولو زرت العالم كلّه طلباً لمثلها لن أجد، كان يخدع نفسه دون أن يعلم...

بدأ بالرّسمِ النهائيِّ للمجسّمِ كما يشاء، وكانت أوّلَ تجربةٍ ناجحةٍ لهُ كما كان يظنّ...

صنعه بأحسن مواصفات، أبدعَ في ابتكاره، ووبدأ التّعمقَ في تكوينه، صنعه من أفضل المعادن وأجملها، صنعه بأدقِّ التّفاصيل دون أن يشكَّ بإبداعه، لديه الثّقة التّامة بما يفعل....

اهتمّ به كثيراً ليكون أفضل مافي الوجود...

بعد أن انتهى من صنع ما هو يريده، قام باقتصاص الورقة ليكتشف أنَّ تجربته ناجحة...

لكن على العكس تماماً كانت أفشل من جميع تجاربه...

كان فرحاً عندما قُطِعت الورقة لم يتذكر أنّها كوّنت تفاصيل ما يحبّ،

أنّها جلبت له السّعادة، كانت كل اهتماماته والآن أصبحت لتجربة ما صُنِعَ من خلالها...

عندما خَسِر مقصّه، بدأ يندم على ما فعله وتمنّى لو تعود تلك الورقة، أو أن يجد مثلها ولكن لم يجد...

لم يكن يعلم أنّه مخدوعٌ وهو من خدع نفسه...

فقال: كنت أنا القاتل، وأنا الضحيّة...!

زورِينيْ...

زوريني...

وإن كنت في السّماءِ كلّميني...

زوريني...

وإن كنت مبعثراً ضائعاً في الرّماد أخرجيني...

وإن أصبحت ظلّاً مشرّداً لملميني...

وإن كنت تراباً مفتّتاً أعيدي لي تكويني...

وإن مددت لكِ ذراعي الممزقة إليكِ شدّيني...

زوريني...

فأنا حبرٌ منثورٌ على ورقْ، مخزّنٌ في قلمْ...

شخصٌ احتواه الأرقْ، لا يفارقه الألمْ...

زوريني...

إنّي كرهت جميع الكلمات، جميع المفردات...

إنّي سيُّء التّصرفات...

تحطّمتُ مرّاتٍ ومرّات...

فتبّاً للذّكريات...

زوريني...

إنّي هويت الظّلام...

إنّي أحارب قلبي من كثرة الآلام...

إنّي تقدّمت إليكِ هرماً والآن أصبحت غلام...

أحببتكِ، ولم يكن حبّي لكِ حرباً بل سلام...

زوريني...

فإنّي أتلقّى عذاباً شديد...

وأقسم لو فقدت ذاكرتي، ورأيتكِ من بعيد...

لأحببتكِ من جديد...

فماذا قلبي يريد؟!...

ولأنطق أحبّكِ وأعيد...

وأرسل لكِ ألف بريد...

ومن آلامكِ أستفيد...

ما زلت أحبّكِ وتخطيت القلب والوريد...

زوريني...

إنّني يا عزيزتي متعبٌ...

ففي أحضانكِ خبّئيني...

عشقُ الطّيورِ...

أشرقت همسات الصّباح، وبدأ يومٌ جديدْ...

فتحت ستارة نافذتي لأُدخِلَ بريق شمسي المفضّلة إلى الغرفة...

وإذْ بذكر حمامٍ وأنثاه يقفان على قضبان الحديد التي تلتصق بالنّافذة...

حمامين متحابّين...

الأولى تقف على القطعة الحديديّة الرّابعة، والثّاني يقف على القطعة الحديديّة الخامسة...

الشّيء المشترك بينهما أنّهم يتنفسان الحبَّ...

كلَّ صباحٍ يأتيان وفي نفس المكان يقفان، ونفس الصّوت يصدران، وبالحبِّ يتكلّمان، ريش بعضهم ينظّفان...

بعد كلِّ هذا يتقرّب الثّاني من الأولى ويضع رأسه على رأسها ويتبادلان أفكار الحبِّ، يتضاربان بالمزاح....

في كلِّ يومٍ عندما يبدأ الدّيك بالصّياح...

مرَّ أسبوعٌ والحبُّ يكرّرُ نفسه...

بدأت أتساءل...

مخلوقٌ كهذا، لديه قلبٌ صغيرٌ جدّاً على مقاس غطاء قلمٍ أو أصغر، ما الّذي بداخله؟، ما الحبُّ والحنان الّذي يمكن أن يخبّأه؟

هل لهذا السّبب معظم الحيوانات ذوات القلب الصّغير عندما تحبُّ وتفقد من تحبّ، من كثرة حبّها تموت...

على الأرجح هذا هوَ السّبب...

إنّهم يمتازون بالحبِّ العميق...

كلَّ يومٍ، وكلَّ شهرٍ يتكرّر المشهد نفسه أمامَ ناظريَّ، وكلَّ يومٍ اندهش...

لم أستطع الاعتياد على هذا...

كلَّ يومٍ أستيقظ باكراً لأراهما من بعيد وهم قادمين إلى مكانهم نفسه وعلى نفس القطعة...

يتأمّلون عيون بعضهم السّوداء...

وفي يومٍ من الأيّام...

استيقظت وفتحت ستار نافذتي...

ها هم يأتون من بعيد...

زوجان متآلفان متحابّان على نفس النّسق يسيران...

على نفس رفّة الجّناح يطيران...

وقفا في نفس المكان...

كما يدعى لديهم «مقعد العشّاق»...

يجلسان على المقعد الرّابع والخامس وكأنَّ الأيّام تكرّر نفسها...

يتبادلان المشاعر، وكأنَّ حوار الطّيور عبارةٌ عن هدوءٍ ونظرات أعين، هكذا يقتبس الحبُّ لديهم...

أرى من بعيد حمامةً كبيرةً تخزّنُ الحقد والشّر والكراهيّة...

وقفت بجانب الحمامة الأولى على القطعة الثّالثة...

وبدأت تقّرب عنقها الشّاحب نحو رأس طفلة الحبِّ الطّائرة...

لم أفهم ما يقال بينهما، لكن نظرات الطّائر الغريب تبوح بالفتنة...

بينما الطّائر الّذي يجلس على المقعد الخامس مذهولٌ بما يحدث...

يمدُّ عنقه وينظر باستغرابٍ شديدٍ وكأنَّ عيونه ستنفجر بحممٍ بركانيّةٍ ونيازك وشهب، رفرف ذو الحقد ورحل بعيداً...

هدوءٌ غريبٌ بين الحمامتين...

هزَّ الحمام برأسه إلى الأسفل، حدّقتُ وذهلت كثيراً، شعرت أنَّ كلَّ شيءٍ انتهى في هذه البرهة الزّمنيّة...

الحزن يغدو في عينيه، لم أرى سبباً واضحاً أو مفهوماً لما جرى...

حلّق ورحل...

وكأنَّ شئٌ انقتل...

وكأنَ حبٌّ انتقل...

وكأنَّ حقدٌ مُفتَعل...

وكأنَّ حزنٌ اشتمل...

حلّق ورحلَ...

وكأنَّ ليلٌ انخلق...

وكأنَّ حبٌّ انفلق...

وكأنَّ النّهارُ انغسق...

وكأنَّ السّتارُ انغلق...

حلّق إلى السّماء يتجوّل فيها لينسى حزنه...

بينما الحمامة تراودها الدّهشة والصّدمة وكأنَّ كلَّ شيءٍ حدث كسرعة البرق...

بقيت وحدها، تتأمّل نفسها، تتأمّل نظيرها الرّاحل على المقعد الخامس...

مجرّدةٌ من الصّوت، مليئةٌ بالهدوء والألم...

حلَّ اليوم الثّاني جاءت لوحدها...

وقفت على نفس قطعة الحديد وبدأت تراجع ذكرياتها...

ارتكيت على نافذتي وحدّقت بها...

تنظّف ريشها لوحدها...

تتلفت بعنقها المفتول إلى جميع الجّهات لعلّه يأتي...

حداد الطّيور الحزين...

لم تبدُ عيناها سوى غيمةٌ مفعمة بالأمطار والحزن الشديد...

ومازالت تنظر في كافة الاتجاهات...

ثمَّ ترمي نظرها إلى المقعد الخامس وتحدّق إليه باستمرار...

كلَّ يومٍ يعاد سيناريو الحزن هذا، ومازالت متأمّلةً عودته...

لكنّه رحل وهو مكسور الجّناح والقلب...

وكأنَّ هذا قاعدةٌ في حبِّ الطّيور: (في فراق الأحبّة يكسر القلب والجّناح، ولكن يبقى الحبُّ والوفاء مدوّنٌ في السّماء الّتي يحلّقون بها)....

❖ ❖ ❖

اذهبْ الآنْ...

اذهب الآنْ...

فما عدت تعنيني...

أقتل النّهار بثوانْ...

فما عادت شمسك تغريني...

وليكن حبّكَ حرباً...

لا أريدك أن تحميني...

لا ترمي أعذارك تقرّباً...

فإنّها لم تعد تكفيني...

احرق كلَّ الذّكريات، فإنّها فانية...

وأنا ظمآنٌ، فلم تعد ترويني...

.....

اذهب الآنْ...

وإن كنتَ حرفاً ساكناً على السّطور...

واعلم أنّي أحببتك شهوراً وشهور...

فكن قمراً وأنا أرضٌ حولك تدور...

وكن فراشةً تحلّق والأرض من حولها زهور...

.....

اذهب الآنْ....

ولا تلتفت إلى الوراء...

سترافقك روحك إلى الفناء...

وانسَ كلَّ الحبِّ وكلَّ العناء...

اذهب بصمتٍ وإلى اللقاء...

لكن، ستردّك إليَّ الأخطاء...

أخطاؤك ونقاطك السّوداء...

فلن تشهد معك النّجوم في الفضاء...

ارحل، دون بقاءْ..

❖❖❖

الفهرس

منــزلٌ يتيــمٌ...	7
الرّواقُ الحزينُ...	12
منزلٌ يتيمٌ (يوم العودة)...	15
حياةُ الرّاحلين...	20
منزلٌ يتيمٌ (يومُ الوداعِ الأخيرِ)...	23
الرّسالةُ الأخيرةُ...	27
الغموضْ...	31
المقبرةُ الغامضةُ...	35
وحشيّةُ الكونْ...	40
رؤيا...	45
نيلزْ ومدفنُ الأوهامِ...	53
المقصُّ....	59
زورِينيْ...	62
عشقُ الطّيورِ...	65
اذهبْ الآنْ...	71